أضواء على تاريخ قرقيسيا القديم

بقلم: عبد الصمد حيزة

ان اهتمام العلماء من كافة أرجاء العالم المتحضر، وكثرة البعثات الاثرية الى منطقتنا التي عرفت في فترة قديمة من الزمن بآرام النهرين[1]، أي الفرات والخابور.

هذه البقعة التي هي منطقة طرق نهرية وبرية قد شهدت دولا « وعنصريات عديدة انصهرت في كل متجانس تاركة بقايا أثرية عمل بعض علماء الآثار على وضع بصماتهم عليها، حيث نقبوا في عدد من التلال الموجودة في منطقة الخابور أو (شوربورم)[2] كما كان يسميها الآشوريون، والتي تتناثر فيها (١٤٠) تلا أثريا ».

لقد اخترت من بين التلال التي لا تزال بكرا اذ لم تقم أية بعثة أثرية حتى الآن بالتنقيب فيها وابراز أثرها الحضاري بالرغم من أنها دفنت دون أن تحنط وزال حتى شكلها المنظور الا بقايا مرتفع تحفه رقع من القرميد وآثار مخطط لمدينة تأبى الا أن تبرز معالمها حتى ولو قست عليها العوامل الطبيعية والبشرية.

وذلك التل هو (قرقيسياء) أو البصيرة كما تسمى الآن.

لقد حدد موقعها وابعادها بطليموس فقال: مدينة قرقيسياء طولها / ٦٤ / درجة وخمس وأربعون دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة. وهي من الاقليم الرابع.

وقال عنها صاحب الزيج / طولها اربع وستون وعرضها ثلاث وثلاثون وربع.

وذكرت مجلة الحوليات الاثرية: قرقيسياء، عرفت قبل الفتح باسم (كيركيزيوم) ومكانها عند قرية البصيرة الحديثة عند مصب نهر الخابور في الفرات.

وجعلها ابن حوقل في مصوره على الضفة الشرقية للفرات بينما تقع على الضفة الغربية. وقال بأن الخابور يقع على نواحي قرقيسياء. وأورد أن بينها وبين الخانوقة (حلبية) يومين وأنها أصغر من الرحبة.

هناك حقيقة أساسية في التاريخ أن عدم اكتشافنا لبعض المناطق لا يعني اهمالها فهناك مئات من التلال والمناطق الاثرية التي تعود الى (ما قبل العصر الحجري النحاسي)[3] (أي النصف الاول من الألف الرابع قبل الميلاد). وهو العصر الفخاري واولى حضاراته وجدت آثارها في تل حلف بين الفرات والخابور في الجزيرة السورية وتمتاز هذه الحضارة بالخزف الدقيق المزين بالمواضيع الهندسية والطبيعية.

قد نجهل أجناس بعض أقوام سكان الرافدين

---

١ – فيليب حتي . تاريخ سورية .

٢ – أطلق الآشوريون اسم شابوروم على منطقة نهرالخابور .

٣ – عصر الكالكوليتيك موجز تاريخ الحضارة – طربين – عاقل – حاطوم – مدني .

وبلاد الشام ولكن من المتعارف عليه منذ حوالي القرن الرابع ق.م انهم ينتمون الى الجنس العربي المتوسطي كما يذكر العالم الفرنسي الشهير (رينيه دوسو) .

تلك حقيقة تفرض نفسها رغم أن بعض الحضارات التي عاصرت المنطقة كانت غير سامية وآخرها الدولتان الفارسية والبيزنطية اللتان كانتا تتنازعان النفوذ على المنطقة .

الا ان الدويلات العربية المتفرقة التي برز كيانها بشكل واضح بعد حكم الاسكندر المقدوني وانشاء ملوك الطوائف حيث كان هناك أكثر من كيان عربي كانت هي السائدة في المنطقة وبعضها قديمة جدا عاصرت الآشوريين كمملكة زبيبي وقيذار وعريبي .

ويجب ان لا نغفل أن ملك الحيرة جذيمة الابرش بصراعه مع والد الزباء (نائلة ابنة عمرو ابن الظرب)(٤) وقعت أحداثها في منطقة قرقيسياء .

وكانت مدينة قرقيسياء ثغرا دفاعيا بين الدولتين الرومانية والفارسية وقد سيطر عليه اخيرا الرومان واهتم به أباطرتهم فقد شيد سورها وأبراجها بالجهة التي تصل الفرات بالخابور (ديقلوسيان) كما أمر بزيادة حاميتها العسكرية من ستة آلاف الى عشرة آلاف الامبراطور (جوستنيان) كما ذكر المؤرخ وأضاف الى بعض الجدران على الاسوار الامبراطور (جوزتنيان) كما ذكر المؤرخ (بروكوب) .

وهكذا استمر الصراع بين الفرس والروم على هذه المنطقة حتى مجيء الاسلام فاتحا ومحررا في ١٦ هجري الذي قضى على نفوذ الامبراطوريتين الكبيرتين في المنطقة باكملها .

وتبرز اهمية قرقيسياء في الاسلام كثغر عظيم من ثغور المسلمين فتلعب دورا هاما في صد غارات الروم وضرب جيوشهم على الحدود كما لعبت دورا كبيرا بواسطة امرائها الكبار امثال زفر بن الحارث الكلابي في الصراع الدائر بين المسلمين على الحكم .

ويكفي انها كانت قصبة الخابور التي لا تنافس وكورتها (ماكسين وعربان والمجدل) .

ومنذ اواخر القرن التاسع عشر اخذت تقوم بعض المدن او القرى الحديثة على آثار المدن القديمة التي دمرها المغول والتتار حيث قامت جرابلس على انقاض (كركميش) ومسكنة على انقاض (بالس) والبصيرة على انقاض (قرقيسياء) الى آخر ذلك من المدن العريقة والكثيرة .

هذه لمحة موجزة عن قرقيسياء . لااريد ان تصرفني عن البحث الاساسي و لااريد ان ادخل في تفاصيلها الكثيرة لان ذلك معروف من قبل كثير من العلماء والباحثين . لذلك لابد لي ان أصرف البحث الى تلك الصفحات القديمة والمجهولة من تاريخها القديم .

أعود الى ما أشرت اليه من قبل وهو ان انساننا في الشرق قد قام بمنجزات حضارية كبيرة كالعمل في الزراعة وتدجين الحيوانات وتشييد المساكن التي تتجمع بشكل قرى صغيرة على مرتفعات من الارض هي أساس التلال الاثرية التي تملأ رحاب منطقة آرام النهرين كما انتشرت بعض التعاليم في مراكز التجمعات البشرية ودون التشريع في آسيا الصغرى وقلب الهلال الخصيب واطرافه . كل ذلك يحفزنا الى استعراض الدول التي عايشت منطقتنا والامبراطوريات الكبرى التي تركت بصماتها فيها .

ان الحضارات التي سادت المنطقة لم تكن نتاج سلالة واحدة من الاسر او دولة معينة بل كانت نتيجة لالتحام وتزاوج حضاري في المنطقة العربية منذ غابر الازمنة .

فالسومريون وهم عنصر غير سامي كانوا اول من شيد حضارة عظيمة في بلاد الرافدين

---

٤ – المرأة في التاريخ العربي – د . ليلى الصباغ – صفحة ٣٠٠ .

٥ – من كتاب رحلة اثرية على الفرات ودجلة ، تاليف هرتزفلد .

وذلك حوالي ٤ اربعة آلاف سنة ق.م ومع ذلك فقد كانت اسر سامية تعاصرهم .

فمدينة اكاد المجهولة الموقع حتى الآن قد نافست المدن السومرية الى ان قويت شوكتها فقضى احد ملوكها العظام (صارغون الاول)عام ٢٣٣٤ق.م على نفوذ السومريين فحلت اكاد السامية عاصمة للبلاد بدلا من اور السومرية وهنا يبرز العصر البابلي الذي امتاز بممالك المدن(٦) حيث لا تشمل حدودها الاراضي المحيطة بها ولكن ملوكهم العظام كانوا على شهرة واسعة ويكفي ان نذكر منهم المشرع الكبير (حمورابي) ١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق.م الذي فتح بلاد آمور وهدم عاصمتهم (ماري) في زمن آخر ملوكها (زمري ليم) حيث ان الأموريين كانوا قد اسسوا عدة سلالات من بلاد آشور في الشمال حتى لارسا في الجنوب ومنها مملكة يمحاض (حلب) وهكذا بسط حمورابي نفوذه على ارض الجزيرة بكاملها ثم قدم الحثيون الذين نجحوا في احتلال سورية بعد معارك طاحنة وشقوا طريقهم الى ماري التي كان قد دمرها حمورابي قبلهم ثم انحدروا الى بابل ففتحوها وقفلوا راجعين .

ادع جانبا الكنعانيين لاتحدث عن الآراميين الذين كانت هجرتهم حوالي ١٥٠٠ ق.م من الجزيرة العربية واستوطنوا سورية الداخلية والشمالية الشرقية حول بادية الشام وانشأوا عدة ممالك منها (آرام النهرين) حول نهر الخابور وعاصمتها (غوزانا) اي تل حلف وآرام دمشق التي تزعمت الممالك الآرامية للتصدي للخطر الآشوري وذلك بعد ان اخذت القبائل الآشورية تضغط على المناطق المجاورة ومنها الخابور والاخلامو واخيرا العريبي) حيث عرب الصحرا وهكذا سيطر الاشوريون على منطقة آرام النهرين بعد ان تحرروا من نير الحوريين ثم اضمحلت سلطتهم فتقضي بابل على آشور وتسقطها سنة ١١٠٧ ق.م لتنبعث قوتهم من جديد بعد ان حكمهم ملوك اقوياء (كسارغون الثاني) و (سنحاريب) و (اسرحدون) فينقلون عاصمتهم الى نينوى ويعقدون معاهدة(٢) مع الكلدانيين سنة ٨٨٩ ق.م يعترف بسيادة آشور على ارض الجزيرة من الخابور في الغرب الى الفرات في الجنوب الى مايجاور بغداد الحديثة في الجنوب الشرقي .

ولكن تحالفا بين الميديين والكلدانيين سنة ٦٢٠ق.م بين سياخار الميدى ونبوبولاصر الكلداني ادى الى القضاء على دولة اشور سنة ٦١٢ ق.م . واعلن الميديون سطرتهم على المنطقة بعد ان قضوا على حلفائهم البابليين مما جعل بابل فريسة سهلة لقورش ومن جاء بعده من الفرس القدماء حتى مجيء الاسكندر بن فيليب الذي قهر الفرس واستولى على ممتلكاتهم التي تقاسمها قواده بعد وفاته ودفنه في مدينة بابل .

من هذا الاستعراض التاريخي للامبراطوريات والدول التي تواجدت في المنطقة سواء كانت سامية او هندو اوربية يتضح لنا اهمية هذه المنطقة التي كثر النزاع حولها فهي تزخر بالخيرات من حبوب وفواكه وبانواع كثيرة من الحيوانات حتى الفهود والاسود والفيلة (١) هذا عدا انها عقدة طرق تجارية هامة نهرية وبحرية وبرية وفي مركز القلب من هذه المنطقة تقع (قرقيسياء) في موقع جعلها قاعدة الخابور ونقطة التقائه بالفرات مما يجعلها ميناء هاما يلفت نظر كافة الدول التي عايشت المنطقة منذ اقدم العصور .

لاشك ان تعاقب هذه الدول قد ترك آثارا كثيرة على ضفاف الخابور حيث يوجد كما قلنا حوالي (١٤٠) تلا اثريا بين الحسكة وقرقيسياء كيف لا وقد كان سرير نهري الفرات والخابور يتسع لاسطول قوامه (٢) (٩٠) سفينة تمخر عبابه لتصل الى الخليج العربي .

---

١ ـ الواقدي : فتوح الشام ج ٢ ص ١٠٧ .

٢ ـ البلاذري في فتوح البلدان ، الجزيرة كلها فتحها عياض بن غنم ، الطبري ، الجزيرة فتحها عمرو بن مالك) .

٣ ـ تاريخ العالم الجزء الثاني (جون هامرتون) .

٤ ـ تاريخ العالم المجلد الثاني صفحة ١٦٦ (جون هاملتون .

ومما يدل على اهمية هذه المنطقة من الناحية الاقتصادية والتجارية وجود الانهار التي كانت اهم طرق المواصلات في ذلك الحين :

١ ـ فهناك الخابور السريع الجريان والذي كانت حمولة سفنه اكثر من (١٢٠) غورا تحمل الفواكه والحبوب بعد ان تتجمع في قرقيسياء حاصلات الخابور حيث تنقل الى العراق فالخليج العربي .

ب ـ طلب ايبي سين سنة ٢٠٠٠ ق.م ملك اور من ملك ايسين الواقعة على الفرات ان يرسل له حبوبا فأجاب طلبه حيث أرسل له حمولتين على (٦٠٠) سفينة اكثر من (١٤٤) الف غور اي مايعادل (٢) (٤٠) أربعين الف طن .

ج ـ اهتمام المشرع الكبير حمورابي بتحديد شروط بناء المراكب ومواصفاتها وتأجيرها واستخدام ربانها الذي يسيرها بالمجذاف او الشراع كل ذلك يدل على مدى التوسع التجاري والغنى الاقتصادي الذي تتمتع به منطقة الخابور والفرات مما يجعلنا نقول بحق ان الجزيرة هبة النهرين كما ان مصر هبة النيل .

ولكن متى وجدت قرقيسياء ومن بناها والى اي عهد تعود وهل هي آشورية أم بابلية أم آرامية أم رومانية أو غير ذلك .

سؤال محير لانجد اجابة شافية عليه .
ولكن امامنا بعض الحقائق التي قد تلقى بصيصا من النور على اصل هذه المدينة .

١ ـ يذكر العلامة الكبير ابن العبري ان قرقيسياء بنيت في زمن بطليموس اورغاطيس.

وهذا الكلام رغم وضوحه فانه لايدل على ان بطليموس (٤) هو اول من بنى قرقيسياء او بنيت في زمنه فكلمة بني او باني قد تدل احيانا على انه مجدد لبنائها وليس بانيها الاول والدليل على ذلك ماذيله ابن عماد الحنبلي (مالك بن طوق) صاحب الرحبة وبانيها . علما « ان الرحبة قديمة جدا » ذكرت في الصراع الآرامي الاشوري والتوراة بينما يعود زمن مالك بن طوق الى القرن الثالث الهجري .

٢ ـ ذكر حمزة الاصفهاني : قرقيسياء معرب كركسيا وهي بلد على الخابور قرب رحبة مالك بن طوق الى ان يقول :

سميت بقرقيسياء ابن طهمورث الملك .

فاذا عرفنا ان طهمورث الملك هو ثاني ملوك الاسرة الفيشداذية وهي اقدم طبقات ملوك الفرس القدماء استطعنا أن نستنتج انها أقدم بكثير من الاسكندر المقدوني وخلفائه البطالمه الذين تواجدوا في القرن الثالث ق.م علما « ان البطالمة حكموا مصر بينما قائد الاسكندر سلوقس هو الذي حكم سورية من بعده (واليكم الخارطة التي تصور ممتلكات الامبراطورية الفارسية في عهد دارا الاول سنة ٥٢٢ ق.م والتي تحمل اسم وموقع كركيسيوم) .

٣ ـ اليكم مقتطفات مترجمة من كتاب رحلة اثرية على الفرات ودجلة لهير تزفيلد.

ان مدينة البصيرة وهي الاسم الحديث لبلدة كركيسيوم تقع على الفرات جنوب التل الاثري واطلال المدينة تدل على تعاقب مدرجات سكنية قديمة ، وتمتد المنطقة الاثرية حتى نهر الخابور الذي يلتقي بالفرات وقد هدم الخابور جزءا كبيرا من المدينة والاتزال بعض الابنية الاثرية قائمة في الموقع وخاصة المعسكر الذي تقدر ابعاده من /٥٠/ الى /٤٠/ متر وله سور وابراج وجدران مشيدة بالحجارة والقرميد الشبيه بالقرميد البيزنطي الا ان حشوته

---

١ ـ تاريخ الحضارات العام الجزء الاول عدد من المؤلفين .
٢ ـ الفن في بلاد الرافدين للدكتور ثروت عكاشه .
٣ ـ تاريخ الحضارات العام ج ٣ (كل ثلاثة غور تساوي طنا واحدا) .
٤ ـ تاريخ مختصر الدول للعلامة غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري ص ٦٠ .



امتداد الامبراطورية الفارسية ونظامها فى أوج عظمتها فى عهد دارا الأول

أوفى فن قيادة الجيوش على الغاية ، وبلغ تدبير أمور الدولة أسمى منزلة ، وكان من أثر ذلك أن اتسعت أملاك الامبراطورية الفارسية في عهد دارا فامتدت شرقا الى الأراضى الجبلية قرب نهر السند وغربا الى مقدونية وجزر اليونان · وهدد الولاة الناشئون سلطان الامبراطورية في الشمال والشمال الغربى فى بداية عهد دارا ولكنه وطد سلطانه بعد عامين من اعتلائه العرش وجعل الامبراطورية الفارسية تقوم على دعائم راسخة وخرج الاغريق الايونيون على الفرس فى عصر دارا ، فجرد خلفه ، اخشويرش ، حملات بحرية نزلت أرض اليونان نفسها لاخضاع اخوانهم الاغريق ، الا أن هذه الحملات انتهت بكارثة .

سميكه ويتناثر ايضا كثير من الفخار الاسلامي ومدخل المعسكر الرئيسي يمر عبر برج يتوضع على الطرف الشرقي بداخله غرف مثمنة الاضلاع ويدل اختلاف البناء في الموقع وعدم التجانس على انه بني في عصور مختلفة ورمم كثيرا .

وهنا لابد لنا ان نعطي فكرة عن هندسة البناء ومواده الاساسية في تلك الدول القديمة فالبابليون لم يستخدموا الحجر لعدم توفره لديهم فاستخدموا قوالب الصلصال ليظهر بدعة الآجر الاصفر والزعفران .

وكانت محاجر الرخام عند الآشوريين قبلة البابليين حتى ان الآشوريين لم يستخدموه الا لوضع الاسس والجدران في البناء بالرغم من توفره لديهم وكانوا يشيدون قصورهم ومبانيهم بايجاد كوم من التراب الاصطناعية وذلك لحماية المباني من خطر الفيضانات وكان سطحها المنحني يغطى بالزفت والآجر المشوي ويوجه الماء نحو بواليع اعدت في هيكل هذه الكوم التي قد ترتفع الى خمسة عشر مترا احيانا وتكون الجدران سميكة .

ان فن المربعات الهندسي هو من وضع بلاد النهرين . اما السور وهو عنصر الهندسة المدني فقد استعمله الآشوريون اكثر من غيرهم لان الحرب كانت همهم الرئيسي فاكثروا من الحصون الحربية كما اكثر منها الرومان من بعدهم . الا ان حصون الرومان كانت تمتاز بالمتانة لاستخدامهم نوعا « من الآجر يصنعونه من الرمل والجير والماء يضيفون اليه الرماد البركاني (١) المتوفر لديهم بكثرة مع الرخام فيؤدي هذا المزيج الى نوع من الملاط يعتبر في صلابة الصخور وقد استخدموه في بعض المناطق السورية كمعبد (هليو بوليس) في بعلبك ومناطق اخرى .

وهكذا نجد ان مواصفات البناء الموجودة في قرقيسياء اقرب الى الفن الآشوري من حيث الشكل الهندسي ومواد البناء بالرغم من ان البعثة الالمانية التي تقوم بمسح أثري على الخابور حاليا وجدت في قرقيسياء قطعا قليلة من الفخار البابلي وكما ذكر الاستاذ اسكندر داود(٢) ان المدينة عامرة زاهرة بالعصر البابلي كثيرة السكان وافرة الثروة وانها دمرت خلال غزوات آشورية اجتاحتها ومدائن الخابور الاسفل ثم عادت الى سابق مجدها في عهد دارا الاول وبلغ عدد سكانها زمن الرومان / ٦٠ / ألف شخص ثم عاودها المغول (٤) وتيمور لنك بغزواتهم المتكررة حيث كانوا يهدمون ما يرونه قائما «ويقتلوا ما يروه حيا وأخيرا نأتي الى علم اللغة(٥) (الفيلولوجيا) ان علم اللغات الذي نقل التاريخ العام القديم من قاعدته الاسطورية الى قاعدة جديدة ترتكز عليها الآثار القديمة والعاديات والوثائق التاريخية والمخططات القديمة وما افرزته الدراسات العلمية . ان الكتابة التي اخترعت في ٣٢٠٠ق.م من قبل السومريين ورافقتها ظهور دول منظمة الى حد ماكانت تستخدم الخط المسماري واستخدمه البابليون والآشوريون ايضا الا ان الاخيرين بسطوه وادخلوا عليه بعض التعديلات وتعددت لديهم الاختام الاسطوانية وهذه الكتابة قد انتشرت في معظم ارجاء الخابور . وقد وجدت في مدينتنا التي نتحدث عنها .

هكذا نؤكد بأن هذه المدينة القديمة جدا اقدم مما ذكره علامتنا الكبير ابن العبري بانها بنيت في زمن البطالمه . وبدورنا نهيب بالمهتمين بآثار المنطقة ان يقوموا بعمل دؤوب للوقوف على تاريخها العريق والذي قد يقدم معطيات كثيرة تخدم التاريخ الحضاري .

---

١ – تحالف سنة ٦٢٠ ق.م بين سياخار الميدي والبوليصر الكلداني .

٢ – يوجد براكين فيروز المطفاة قرب نابولي وهي كثيرة توفر نوعا من الاتربة تمزج بمواد اخرى فتصبح كالاسمنت المسلح . تاريخ الحضارات ج ٢ .

٣ – الجزيرة السورية اسكندر داود .

٤ – الاعلاق الخطيرة لابن شداد ص ١٥١ الجزء الثالث.

٥ – اول من استعمل الاصطلاح هو افلاطون (فيلولوجيا)د . ربحي كمال .

اعـلام قرقيسياء

١ ـ القرقساني وهذه النسبة الى قرقيسياء وهي بلدة بالجزيرة على ستة فراسخ من رحبة مالك بن طوق نزل بها جرير ابن عبد الله البجلي وعدي بن حاتم الطائي وحنظلة الكاتب .

٢ ـ البر النحوي القرقيسي .

٣ ـ عبد الملك بن سليمان القرقساني صاحب الجامع الكبير وكان مستقيم الحديث .

٤ ـ امام مسجد قرقيسياء أبو عمر وعثمان ابن يحيى ابن عيسى القرقساني .

٥ ـ الحسن بن علي بن جبير بن عبد الله البجلي القرقساني .

٦ ـ ابو عبد الله محمد بن مصعب بن صدقة القرقساني .

٧ ـ أبو الاصبع محمد بن عبد الله بن صفوان الاسدي القرقساني .

الانساب للسمعاني .

ملاحظة :

لم يكن الشاعر القطامي من قرقيسياء كما ذكر البعض وانما أسر بها أثناء القتال بين قيس وتغلب وعفا عنه الامير زفر وارسله الى اهله مع مائة ناقة .

(الاعلام للزركلي ـ الشعر والشعراء لابن قتيبه) .

عبد الصمد حيزه